لماذا اندثرت اللغة اليونانية واللغة اللاتينية وبقيت اللغة العربية صامدة؟

أ. أحمد بناسي

جامعة الجزائر

تعتبر اللغة اليونانية من أبرز اللغات التي أثرت تأثيرا بليغا في الفكر البشري عبر مسيرته الكبرى، واللغة اليونانية كسائر اللغات، وكظاهرة اجتماعية، نمت تدريجيا، تطورت مرحلة بعد مرحلة. فمن أثينا، موطنها الأصلي، شدت الرحال إلى الإسكندرية، العاصمة الثانية لليونانيين ومن هناك عبرت الحدود إلى آسيا والشرق العربي، فكيف كانت البداية؟

إن المؤرخين يجمعون على بروز الإلياذة، أو الملحمة الشعرية التي جادت بها قريحة "هوميروس" أعظم شاعر غنائي في ذلك العصر، كانت بداية الانطلاق. إن الإلياذة كانت بمثابة دائرة معارف، فيها وصف دقيق للوقائع

والأحداث، وسجلّ رائع للحياة الاجتماعية والسياسية والفكرية التي كانت سائدة في المجتمع اليوناني، ثم تحولت إلى خالد، ومنبع أصيل للوطنية والعزة والشرف، لقد كان المربّون لا يستغنون أبدا عن هذه الإلياذة في تربية أبنائهم وتنشئتهم تنشئة وطنية، تغرس فيهم حبّ الوطن والدفاع عنه، فأرسطو (380-322). عندما استدعاه فيليب الملك المقدوني ليشرف على تربية ابنه الإسكندر ليجعل منه قائدا ممتازا فإن الإلياذة كانت أول شيء لقنه أرسطو للإسكندر.

ويبدو أن هذه الإلياذة تمكنت من قلب الإسكندر حتى أنه كان يضع نسخة منها تحت وسادته[1] على أن أعظم إنجاز للإلياذة في الميدان اللغوي هو أنها جعلت اليونانيين يتجاوزون خلافاتهم اللغوية ولهجاتهم المتعددة ويتخذون لأنفسهم لغة واحدة " لأنهم كانوا يتخذون مجموعة من الشعوب المتشابهة تربطهم رابطة واحدة هي اللغة[2] ومن الملاحظ هنا أن "سارتون" يبدي تأسفا واضحا من خلال بعض العبارات وهي أن أجزاء كبيرة من أوروبا لم تطلع على هذه الإلياذة التي كانت أساسا لانتشار اللغة اليونانية وهذا لسبب بسيط وهو أن العرب لم يترجموا هذا التراث الأدبي الخالد يقول سارتون: " والواقع أن هذا الجزء الرئيسي من الثقافة اليونانية لم ينتقل إلينا مع علوم اليونان وفلسفتهم عن طريق السريان والعرب[3] .

هذه هي الإلياذة ودورها الحاسم في تأصيل اللغة اليونانية التي أخذت تتطور لتكتسب أبعادا جديدة. فبعد ردح من الزمن، عرف المجتمع اليوناني تطورا هائلا، سواء على المستوى الاجتماعي، أو السياسي أو الثقافي، فلقد

انتشرت الثقافة انتشارا واسعا، وتعززت مكانة الفرد في المجتمع، وسادت الديمقراطية فتنوعت الأفكار، واختلفت الآراء، وارتفع لواء الجدل، فكان كل فرد يحاول أن يدافع عن أفكاره، وأن يقنع غيره بصحتها، وهذا لا يتأتى إلا لمن ملك ناصية اللغة، واكتسب فن التبليغ وإدارة الجدل. وهذا هو الدور الذي اضطلع به السوفسطائيون. وهم طائفة من المفكرين، احترفوا مهنة التعليم" فكانوا إذا تبنوا فكرة قدموا الحجة والبرهان على صحتها، لكنهم يتبنون نقيضها ومحاولة إثباتها بالطريقة نفسها. ومن هنا فإن السوفسطائيين هم الذين وضعوا علما جديدا في الميدان اللغوي، لم يكن معروفا من قبل وهو علم البلاغة، على أن هناك فنا آخر أعطوه أهمية قصوى، وهو فن الخطابة فلقد أعطوا بذلك للكلمة قوتها وسحرها وجاذبيتها. فإذا ذكر السوفسطائيون ذكر معهم الخطباء العشر وأشهرهم على الإطلاق جورجياس(485.....) وأنتيفيون (480 ق م 411). "لقد كان في وسع جورجياس أن يجعل الأشياء التافهة جليلة والعكس بالعكس. وكانت لهجته أتّيكية فصيحة (يونانية خالصة) وكان مولعا بالألفاظ الغريبة، والاستعارات النادرة، وكان يكتب مقالات خطابية وينشد أشعارا رياضية ويُلقي خطبا في الأعياد... فكان غرضه الأول الفصاحة والإقناع[4] أما "أنتيفيون" فلقد احترف بدوره الخطابة وكان زعيما لمدرسة خطابية[5] . لكنه خاض غمار السياسة وارتمى في أتونها، فقتل سنة 411 ق م. وبعد السوفسطائيين جاء سقراط (470 –399) فاعتمد هو أيضا الحوار كوسيلة هامة للتبليغ والمناقشة. فلم يكن له موضع يستقر فيه، ولا مدرسة يلتفُّ فيها حول الطلاب، وإنما كان المجتمع هو مدرسته الكبرى أي الأسواق والشوارع، لقد كان الهدف الأساسي لسقراط هو أن

يتجاوز الفوضى اللغوية التي أحدثها السوفسطائيون فانصرف قبل كل شيء إلى تحديد المعاني، والتصورات، لأنه "لا جدوى للمناقشة إن لم نكن نعرف على أدق وجه ممكن الموضوع الذي نتكلم عنه[6] .ثم جاء أفلاطون (427–347). وهو تلميذ سقراط، فأعطى للغة اليونانية بعدين أساسيين: بعدا أرستقراطيا، لأن طلابه في الأكاديمية كانوا من النخبة الممتازة، حتى أنه كتب على بابها " لا يدخل بيتنا من لا يحسن الهندسة". أما البعد الثاني فلم يكن على غرار أستاذه، فلقد تخلّى عن الحوار الشفوي، واعتمد مكانه الحوار المحض، " لقد ابتدع صورة فنية في بابها لا هي بالنثر الخالص ولا هي بالشعر المحض، لقد جاءت هذه الصورة الفنية على شكل حوار كان يجري في مكان معين وزمن معين". وبعد أفلاطون جاء أرسطو، وهو تلميذ أفلاطون كما نعلم، فلقد تجاوز أستاذه ليس في المعضلات الفلسفية فحسب، وإنما في طريقة الكتابة والتأليف، فلقد استغنى عن أسلوب الحوار وكذلك لغة النثر، وما يتخلل ذلك من الشعارات، لقد كانت تآليفه بداية عصر جديد، وأعني بذلك الأسلوب العلمي المركّز حتى ظن البعض أن أرسطو لم يكن يتوفر على القدرة البلاغية التي كان يتمتع بها أستاذه. لكن الحقيقة غير ذلك فإن هنالك فرقا بين الأسلوب الأدبي والأسلوب العلمي ولقد خصّص سارتون حيزا هاما لهذه القضية دفاعا عن أرسطو وأسلوبه "إن الأديب يبدل قصارى جهده للتعبير عن أفكاره بأسلوب أكثر طلاوة ولباقة ورشاقة واتزانا أما المؤلفات العلمية وخاصة أرسطو فمضمُونُها أهم بكثير من أسلوبها[8] وعلى كل فإن أرسطو قد عبّد الطريق بهذا الأسلوب العلمي المتين لمن أتى بعده.

هذه هي حالة اللغة اليونانية وتطورها وهي في عقر دارها، فكيف تطوّرت وازدهرت خارج معقلها الأصلي؟

- من أثينا إلى الإسكندرية:

إن الفضل في انتشار اللغة اللاتينية خارج ديارها يعود إلى الملك المقدوني فيليبس الثاني (383–336) ق م فلقد كان قائدا عسكريا ممتازا وسياسيا محنكا وكان له طموح كبير في أن يؤسّس إمبراطورية عظمى، تضم شعوبا وأمما على اختلاف ألسنتها، وديانـاتها، وما إن تربّع على عرش أجداده سنة 360 ق م حتى جهّز جيشا عظيما وتوجّه به نحو أثينا فاحتلها سنة 338 ق م وبعد معركة عنيفة تسمى في التاريخ خيرونة[9]. وبعد هذا الانتصار الأولي وطّد العزم على أن يحرّر بعض المستعمرات اليونانية التي كانت ترزح تحت وطأة الفرس لكنه اغتيل سنة 336 ق م فخلفه ابنه الإسكندر (356–323) وكان لا يقل كفاءة عن ابيه في الشؤون العسكرية والسياسية، فلقد تقلّد مقاليد الحكم سنة 336 ق م ثم عزم على أن يحقق مطامح أبيه فاتجه نحو الشرق فاستولى على مصر سنة 332 ق م وكثير من البلدان الشرقية وفي مصر، أسس مدينة عظمى هي مدينة الإسكندرية، وبينما هو في اعز فتوحاته وذروة مجده، مات في بابل سنة 323 ق م وقد استغرقت فتوحاته 13 سنة. وحينما توفي خلفه أحد أصدقائه وهو بطليموس الملقب "بسوتر". أي المنقذ فكان هو أيضا قائدا ممتازا، محبّا للعلم وكان له صديق عزيز هو "ديميتروس" (345) وكان مثقفا ثقافة كبيرة فأشار على بطليموس لكي ينشئ

متحفا ومعهدا للعلوم وهكذا أسس بطليموس مدرسة. هذه المدرسة التي غيرت بحق، خريطة العالم في الميدان الثقافي فلقد وفد إليها العلماء سواء من أثينا نفسها، أو من البلدان التي فتحها الإسكندر وفي هذه المدرسة نبغ كثير من العلماء والمفكرينن أمثال "اقليدس" و"أرخميدس" أو في العلوم الأخرى، كالطب والفلسفة، واللاهوت والعلوم الرياضية يقول سارتون: "إذا نحن عدنا إلى أوائل أيام معهد العلوم الإسكندري، أو إلى القرن الأول من تاريخه، فلا يسعنا إلا أن نقدر عظمة تأثيره في تقدم العلوم، إذ يرجع إلى إنشائه وإلى ما لقيه من رعاية مستنيرة ساعدته على تأدية وظيفته دون عقبة في سبيله. لقد شهد القرن الثالث قبل الميلادي ما شهد من نهضة رائعة خلابة فأفسح لرجاله ميدان القيام بأبحاثهم مواصلتها في حركة كاملة، ولأول مرة في التاريخ، وعلى قدر ما لدينا من المعرفة ، تم تنظيم البحث الجماعي وذلك دون توجيهات سياسية أو دينية بحيث كان الهدف الوحيد هو البحث وراء الحقيقة[10] ثم استمرت اللغة اليونانية في الذيوع والانتشار خارج الإسكندرية فتعلمها السريان، وهم سكان ما بين النهرين فلقد أسسوا عدة مدارس ربما يبلغ عددها خمسين مدرسة أشهرها "الرها" و"قنسرين" و"نصيبين" وكان التعليم بالسريانية و اليونانية ونحن نعلم أن هؤلاء قاموا بمجهود جبار في نقل التراث اليوناني إلى العربية.

اليونانية والتراث اليهودي

ومن ناحية أخرى استطاعت اليونانية أن تستوعب التراث اليهودي أو ما يسمى بالترجمة "السبعينية" وسبب هذه التسمية أن الذين اضطلعوا بترجمة العهد القديم أو التوراة كان عددهم 72 مترجما، ولقد أنجزوا هذه المهمة في

ظرف 72 يوما. وهكذا أصبحت اللغة اليونانية لغة العلم والإدارة والسلطة لكن هذه اللغة أخذت تفقد شعاعها وتأثيرها شيئا فشيئا على يد اللغة اللاتينية بعد صراع عنيف دام قرونا عديدة، فكيف نشأت اللغة اللاتينية، وكيف استطاعت أن تحلّ محل اليونانية وفي أي عصر كان ذلك؟

نشأة اللغة اللاتينية:

إن اللغة اللاتينية كانت في البداية مجرد لهجة لمدينة روما، ثم أخذت تتسع باتساع الفتوحات، حتى أصبحت لغة قومية، بعد أن تغلبت على بعض اللهجات المحلية[11] . ففي سنة 86 ق م ظهر قائد عسكري وهو "فيليكس سولا". وكان عنيفا شديد القساوة فاستولى على أثينا وحمل منها إلى روما." أحمالا من كتب العلم والفلسفة فانتقل العلم بذلك من أثينا إلى روما"[12] وبعد اختفاء "سولا" اشتد الخلاف بين القادة العسكريين وكان من عادة الرومانيين في الماضي أن ينتخبوا عسكريا ليتولى الحكم أثناء الأزمة وهكذا عين يوليوس قيصر (102–44) ديكتاتوريا لمدة 10 سنوات ثم مدى الحياة سنة 45 ق م[13] لكن قيصر اغتيل سنة 44 ق م وبعد اغتياله تقلد سدة الحكم رجل عسكري آخر اسمه الحقيقي "أكتافيزس قيصر" لكنه كان يختلف تماما عن يوليوس قيصر فلم يكن ديكتاتوريا كأسلافه " فلقد أعاد الحرية لمجلس الشيوخ ولشعب روما"[14].ومنذ ذلك الحين أطلق عليه اسم "أوغسطس قيصر" وعلى يده ولدت الإمبراطورية الرومانية سنة 27 قم ومنذ ذلك الحين أخذت الإمبراطورية الرومانية تتسع شيئا فشيئا حتى استولت على جميع الممتلكات اليونانية لكن اللغة اليونانية كانت لها السيادة المطلقة سواء في الميدان الإداري أو العلمي.

يقول يوسف كرم: "فلما أدانوا (أي اليونان) للرومان ودان الشرق اتحد الشرق والغرب في دولة واحدة اختلطت فيها الحضارات وتمازجت، كانت هذه الدولة رومانية الهيكل يونانية الروح، فكانت اللغة اليونانية بمثابة لغة دولية إلى جانب اللغات المحلية حتى الرومان أنفسهم" [15]

اللغة اليونانية والمسيحية:

كما استوعبت اللغة اليونانية التراث اليهودي العبري، فإنها استوعبت كذلك التراث الديني المسيحي، ذلك أن "بولس الرسول" أخذ على عاتقه نشر المسيحية في أثينا وروما واسمه الحقيقي "شاؤول الطرسوسي" وكان يهوديا ومواطنا رومانيا وكان يتحدث الإغريقية ويكتب بها دون العبرانية " [16]. وبهذه اللغة كتب رسائله التبشيرية إلى الرومانيين وإلى جميع الكنائس. وبعد انتشار الديانة المسيحية بشكل كبير أصبحت اللغة اليونانية لغة المسيحيين تقرع أجراس الكنائس على إيقاعها غير أن اللاتينية ولأسباب عديدة حلت محلها وذلك في منتصف القرن الثالث الميلادي منذ ذلك الحين "أصبحت اللاتينية دولية لا مجرد قومية[17].

من هذا العرض الوجيز لنمو اللغة اليونانية يمكن أن نستنتج بعض الأسباب التي أدت إلى جمودها.

1. إن اللغة اليونانية لم تكن بين جوانبها أية شحنة دينية، فلم ينزل بها وحي ولا كتاب مقدس، ولم يكلم الله تعالى بها رسولا أو نبيا من أنبيائه، صحيح أن المعابد اليهودية كانت ترتل بها أسفارها، والكنائس أناجيلها، لكن هناك فرق

بين ما هو أصلي وما هو مترجم، كما أن هناك فرقا بين القومية والعاطفة الدينية.

2. إن اليونانية اصطدمت بمرور الزمن بلهجات محلية، فتأثرت بها أشد التأثر، ومن جراء ذلك برزت لهجات هجينة، لا هي لهجات محلية صرفة، ولا هي يونانية خالصة، لقد تفطن اليونانيون إلى هذه الظاهرة الغريبة فاندفعوا بحماس وسلامة تراكيبها ومن بين هؤلاء يوناني اسمه "ديونسيوس" فكان أديبا ذا ثقافة عالية، فألف كتبا ضمنها مختارات من أدب القدامى وخطبهم حتى يمكن تقليدها والنسج على منوالها، وكان يرى أن اليوناني لا يكفيه أن يتعلم اليونانية فقط بل عليه أن يتقنها وكان يرى أن الأدب الجيد هو أقوم سبيل لنقل الحضارة[18]

3. إن السلطة السياسية لم تكن في أيدي اليونانيين فلقد افتقدوها يوم أن غزا بلادهم المقدونيون والرومانيون، فإن كان الرومانيون استعملوا اللغة اليونانية في المجالات السياسية والأدبية والثقافية فإنما كان ذلك اضطرارا لأنهم كانوا في قرارة أنفسهم، يعتبرون اللغة اليونانية لغة أجنبية ولأنهم كانوا يعيشون تناقضا فضيعا فالسلطة المركزية في أيديهم ولكن السيادة اللغوية المطلقة كانت لليونانية ولهذا لم يهدأ لهم بال ولم تطمئن لهم نفس، إلا حينما تجاوزوا هذا التمزق النفسي بإحلال لغتهم سواء على مستوى السلطة المركزية أو في المرافق الإدارية أو في المعاهد التعليمية محل اليونانية.

جمود اللغة اللاتينية:

1. إن ما قلناه عن اللغة اليونانية في الجانب الديني نقوله عن اللاتينية ولا داعي للتكرار.

2. لقد انهارت الإمبراطورية الرومانية فتمزقت أوصالها، وتناثرت أجزاؤها ولم يعد للغة اللاتينية أي سند سياسي يدعمها ويحفظها.

3. برزت في الأفق السياسي الأوروبي النزعات القومية فكل شعب من شعوبها أراد أن تكون له دولة قوية، وكيان يمتاز به عن بقية الكيانات الأخرى من حدود وعلم ونظام للحكم، واللغة بطبيعة الحال هي إحدى المعالم الكبرى للدولة القومية[19]

4. لقد كان رجال الدين المسيحيين دور فعال وهام جدا في نشر اللغة اللاتينية عبر كتاباتهم ومواعظهم ولكن بسقوط الإمبراطورية الرومانية وظهور النزعات القومية فضلوا الانضمام إلى الركب فتخلوا عن اللاتينية الفصيحة واتخذوا بدلها اللهجات المحلية جاعلين شعارهم "خاطبوا الناس بما يفهمون" وبذلك تلقت اللاتينية الفصيحة الضربة القاضية.

ومن خلال هذا العرض المتواضع يمكن أن نستنتج حقيقتين أساسيتين:

1. إن هناك علاقة وطيدة بين السلطة المركزية، واللغة، فكلما كانت السلطة المركزية قوية وجدت اللغة الأبواب أمامها مفتوحة للنمو والرقي والازدهار، أما إذا كانت ضعيفة فإن اللغة ستدخل لا محالة عالم الجمود والانكماش بل والاندثار، وهذه حقيقة عامة تنطبق ربما على سائر اللغات وفي سائر الأوطان.

2. إن هناك علاقة أيضا بين اللغة واللهجات المحلية، فإذا كانت اللغة قوية فإن اللهجات تتغذى وتقترب منها حتى تكاد المسافة تنعدم بينهما وعندئذ يصبح الفرق بينهما فرقا في الدرجة لا في النوع، أما إذا كانت اللغة ضعيفة فإن اللهجات تأخذ مكانها وتتحول إلى لغة حية بينما اللغة الفصحى تتحول إلى لغة ميتة، ولقد رأيت من المفيد أن أدعم هذا الرأي بنصوص على غاية من الأهمية: نص خاص باللغة اللاتينية يقول: "ولما كانت اللغة هي لغة الإدارة كان على كل مواطن روماني أراد الالتحاق بإحدى الوظائف في الحكومة المركزية أو المقاطعات أن يتعلمها وكانت أفضل مدرسة لها هي الجيش الروماني الذي جنّد عسكره من كل ولاية فضلا عن أن الضباط والموظفين والتجار الرومان استقروا في الأقطار الأجنبية بعد فتحها بفترة قصيرة، ونقلوا معهم لغتهم وأخلاقهم وعاداتهم"[20] .

أما النص الثاني فهو خاص باللغة الفرنسية، وهو من تقرير الراهب غريغوار إلى رجال الثورة الفرنسية يقول النص: "إن مبدأ المساواة التي أقرته الثورة يقضي بفتح أبواب التوظيف أمام جميع المواطنين ولكن تسليم زمام الإدارة إلى أشخاص لا يحسنون اللغة القومية يؤدي إلى محاذير عديدة وإما ترك هؤلاء خارج ميادين الحكم والإدارة فيخالف مبدأ المساواة، فيترتب على الثورة و الحالة هذه أن تعالج هذه المشكلة معالجة جدية، وذلك بمحاربة اللهجات المحلية ونشر اللغة الفرنسية الفصيحة بين جميع المواطنين".[21]

أما النص الثالث خاص باللغات العربية يقول النص: "إن اللغة يسقط أكثرها ويبطل بسقوط دولة أهلها، ودخول غيرهم في مساكنهم أو بنقلهم عن

ديارهم واختلاطهم بغيرهم، فإنما يفيد لغة الأمة وعلومها وأخبارها قوة دولتها ونشاط أهلها وفراغهم، وأما من تلفت دولتهم، ربما كان ذلك سببا لذهاب لغتهم ونسيان أنسابهم وأخبارهم، هذا موجود بالمشاهدة وموجود بالعقل ضرورة"[22].

لعلني أكون قد حددت العوامل التي أدت إلى جمود اللغة اللاتينية واليونانية ولو نسبيا، والآن نتساءل هل يمكن إسقاط تلك العوامل على اللغة العربية؟ قبل الإجابة عن هذا السؤال بصفة مباشرة أود أن أشير إلى بعض التحديات التي واجهت اللغة العربية منها:

1. ترسبات ومخلفات عهد الانحطاط:

لقد دخلت اللغة العربية هذا الانحطاط بعد ازدهار دام قرونا عديدة وإن كنت شخصيا أتحفظ على هذا الوصف، أعني الانحطاط، لأنه مفهوم غربي، يحمل في طياته كل معاني التحقير. لقد أطلقه الأوروبيون على القرون الوسطى واستعملناه نحن بدون تفحص، أو نقد، أو تحليل، فالنهضة الأوروبية توصف بأنها نورانية (فلسفة الأنوار)، أما القرون الوسطى فهي عهد الجهل والظلام لأن العلم فيها كان منحصرا في مدارس خاصة، وفي أديرة الرهبان، وكان التعليم يلقن بلغة ضعيفة ركيكة جدا[23] لكن هؤلاء ينسون أن هذا العهد أنجب رجالا مفكرين ومثقفين، وإن كان معظمهم من رجال الذين قاموا بترجمة التراث العربي الإسلامي، الذي كان بحق فجرا أشرقت بعده أنوار النهضة، وإنه لمن الأسف الشديد أن نرتكب نحن هذا الخطأ نفسه، فنصف العهد الذي نتحدث عنه بأنه عهد ظلام وجهل ونقول عن اللغة العربية أنها كانت لغة التلاخيص والشرح، والحواشي، ونأخذ عليها الإسراف في المحسّنات البديعية مع الإشارة إلى جمود الفكر وتحجّره؛ ولكنني أعتقد بالأمثلة والشواهد، أن هذا

العهد لم يكن كله ظلاما دامسا أو جهلا مطبقا، وإنما كانت فيه جوانب مشرقة ساعدتنا على النهوض من كبوتنا مرة أخرى، وجعلتنا نصمد أمام جبروت الاستعمار وطغيانه الجامح، ويتجلى ذلك بالخصوص في مؤلفات ابن خلدون وتاريخه (1322–1406) وابن مالك وألفيته (1273) وابن منظور ومعجمه (1311) وابن تيمية ومؤلفاته (1328) لقد تصورت أن هؤلاء اجتمعوا في مكان ما ليتدارسوا حالة المسلمين، وليجيبوا على سؤالين محددين:

1– كيف نخرج من هذا الركود الحضاري؟

2– كيف نحمي أنفسنا إذا وقعت أوطان الإسلام في قبضة المسيحيين والصليبيين؟

لقد كانت أجوبتهم متضمنة في الكتب التي ذكرتها آنفا وسأتحدث عنها أثناء صراعنا مع الاستعمار.

2. الاستعمار وموقفه من اللغة العربية:

لقد احتل الاستعمار أوطاننا بطريقة وحشية لا نظير لها، فلم يكتف بما يجنيه من فوائد بل تعدى إلى تدنيس مقدساتنا وانتهاك حرماتنا، فلقد حوّل المساجد إلى كنائس ورسّم لغته في الإدارة والتعليم، بدل العربية، تمهيدا للقضاء عليها بصفة نهائية، لكن الاستعمار لم يفلح في مسعاه، لأن جامعتنا ومعاهدنا وزوايانا وكتاتيبنا ظلت تؤدي وظيفتها وبشيء من العناد والتحدي، وإذا تأملنا مضمون البرامج ومواد التدريس، نجد كتب ابن خلدون، وابن مالك وابن منظور تشكل العمود الفقري والأساسي الذي لا غنى عنه، لقد حاول الاستعمار أن يشوّه تاريخنا وحضارتنا فصرّر العرب على أنهم مجموعة من البدو بعيدة كل البعد عن إنتاج الحضارة، وفي أحسن الأحوال فإنهم مجرد نقلة للحضارة لا غير، أما البربر فمجموعة من الهمجيين لا يعرفون إلا الغزو، والتخريب، وفي أحسن

الأحوال، ومن باب "فرّق تسد" يقولون عنهم أنهم من أصل أوروبي اعتمادا على التركيز البيولوجي، لكن ابن خلدون في كتابه تعرض إلى مفهوم العصبية وكيف تنشأ الدولة وتنهار وتعرض كذلك بإسهاب إلى انساب العرب ومختلف قبائلهم، ونمط تفكيرهم ومعيشتهم قبل الإسلام وبعده، كما تعرض إلى أنساب البربر وأصولهم، وقبائلهم وهكذا فإن كتاب ابن خلدون كان بمثابة المرآة التي كنا ننظر فيها إلى أنفسنا كما نحن، لا بالصورة التي رسمها عنا الاستعمار، وهذا هو الدور التربوي لهذا الكتاب في معاهدنا ومدارسنا، أما الإمام ابن مالك فكان يعرف بأن اللغة تؤخذ عن طريق التقليد ثم تأتي مرحلة القواعد، لكن الأمر قد اختلف في عصره وبعده، فأصبحت اللغة بتفشي الأمية وطغيان العامية تكتسب أولا عن طريق النحو وما تبع ذلك من قواعد البلاغة، والصرف، لذلك وضع كتابه الألفية تيسيرا لاكتساب قواعد النحو بأسلوب بسيط يسهل على الطالب حفظها وتمثلها، ومن هنا فإني لا أخطئ إذا قلت عنه أنه كان عالما تربويا وأن كتب النحو الواضح وما شابهها في عصرنا ما هي إلا صدى لكتاب ألفية ابن مالك.

3- موقف التغريبيين من اللغة العربية:

إني أقصد بالتغريبيين أولئك الذين تبنوا أطروحات الغرب، أعني بذلك فصل الدين عن الدولة، والاستغناء عن اللغة الفصحى وإحلال اللهجات المحلية محلها، صحيح أن الأوروبيين استطاعوا أن يحوّلوا لهجاتهم إلى لغات حية، لكن ما هي النتيجة؟ لقد تحولت أوروبا إلى مجموعة من الكيانات المنفصلة بعضها عن بعض لغويا، فالمواطن الفرنسي مثلا لا يستطيع أن يقرأ وأن يفهم خارج بلده الأصلي ما تنشره الصحافة، وما تبثه التلفزة وما تقذف به المطابع من كتب، اللهم إلا عن طريق الترجمة، وإذا سافر إنه يحسّ بالغربة وكأنه ليس في بلد

أوروبي وتبلغ مأساة هذا التمزق ذروتها عندما يجتمع رؤساء هذه الدول الأوروبية ويجدون أنفسهم وجها لوجه وكأنهم غرباء لأنه ليست هناك لغة واحدة مشتركة بين الجميع، إني اعتقد أن أوروبا قد أخطأت خطأ إستراتيجيا ولم تنظر إلى شعوبها بعين المستقبل فأوروبا من الناحية الجغرافية موحدة فليست هناك حدود طبيعية تفصل بين أجزائها كما أن حضارتها حضارة واحدة والدليل على ذلك أننا نقول "الأدب الأوربي"، "الفلسفة الأوروبية" دون أن نغفل الخصائص المحلية، فماذا لو اعتمدت أوروبا لغة واحدة كاللغة اللاتينية وبعثت فيها الحياة، ألا يكون ذلك أجدى لها من هذا التمزق اللغوي؟[24]

إن الأوربيين تفطنوا إلى أنهم تقوقعوا ضمن دولهم القطرية بشكل مفرط وبحساسية زائدة، فأرادوا أن يتداركوا هذا التمزق فأخذوا ينشئون مؤسسات اقتصادية وسياسية كمقدمة للوحدة، واتخاذ العملة الموحّدة في هذه الأيام الأخيرة شاهد على ذلك، إن العرب تفطنوا إلى ما وقع فيه الأوربيون فلم يشاءوا أن يسقطوا في هذا الفخ، لأن اللغة العربية هي القاسم بينهم "فإني كجزائري أستطيع أن أقرأ، وأن أفهم كل ما تنشره الصحف العربية، وكل ما تبثه قنوات التلفزة، كما أنني أستطيع أن أقرأ أي كتاب يصدر في القطر العربي بدون أن أحتاج إلى الترجمة، أما إذا سافرت إلى القاهرة أو سوريا، أو إلى اليمن فإني لا أحس بالغربة أبدا، وإن اجتمع رؤساء الدول العربية ووجدوا أنفسهم وجها لوجه، فإن اللغة العربية هي الأداة الوحيدة للتواصل فيما بينهم"[25] . إن منطق التغريبيين قد تجاوزه الزمن في الوطن العربي وإن بقي مهيمنا على أفكار بعض الشواذ حضاريا خاصة في منطقتنا المغاربية.

الظاهرة التغريبية:

على أن الظاهرة الفرنكفونية أو التغريبية ليست ظاهرة جديدة فهي موجودة في أماكن مختلفة من العالم قديما وحديثا، فلقد كانت هناك طائفة من اليهود في العهد اليوناني أغروقوفونيين "لأنهم كانوا يعتبرون أنفسهم يونانيين لا يهودا فكانوا إذا قرأوها باليونانية، وكانت مراسيم العبادة في كنائسهم باليونانية أيضا وكانت أسماؤهم أسماء يونانية وكانوا يقلدون اليونان في عاداتهم وأخلاقهم"[26]، أما في شمال إفريقيا فلقد كان "جوبا الثاني" هو أيضا إغروقوفونيا، نشأ في روما وتعلم أحسن تعليم على يد معلمين يونانيين حتى أصبح عالما ممتازا ومواطنا رومانيا، فلقد بذل غاية جهده ليدخل الثقافة الرومانية إلى مملكته"[27]، أما القديس أوغسطين (354.330) فلقد كان رومانوفونيا بأتم معنى الكلمة فلم يكن جزائريا إلا بالولادة البيولوجية لقد ألّف عدة كتب منها: "مدينة الله" ويقال "أسلوبه كان من أمتن أساليب الأدب اللاتيني" [28].

وهكذا تجاوزنا مخلفات عهود الانحطاط وترسباته، وصمدنا أمام تحرشات الاستعمار وتنطعات الفرونكفونيين التغريبيين، إلا أن هناك عوامل أخرى مباشرة ومقصودة بذاتها وهي:

1. إن اللغة العربية عكس اليونانية واللاتينية كانت تحمل بين طياتها شحنة دينية ربانية، فلقد نزل بها القرآن وكلم الله بها سيد المرسلين وخاتم النبيين، ﴿**إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون**﴾. لقد وعد الله عباده المؤمنين الصادقين بأن يحفظ القرآن، ووعده حق﴿**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**﴾[29].

وهكذا ظل القرآن منذ نزوله إلى اليوم يرتل باللغة التي نزل بها في مساجدنا وصلواتنا وأفراحنا وأحزاننا.

2. النهضة الإسلامية واللغة العربية:

لقد بدأت الدعوة الإسلامية الإصلاحية في أرض الحجاز الطاهرة، مهد النبوة المحمدية "لقد كانت الجزيرة العربية مثل سائر الأوطان العربية، فلقد انتشر فيها الجهل، وكثرت فيها الخرافات والبدع والأساطير وانعدم الأمن و بعُد الناس عن التعاليم الإسلامية الصحيحة، ففي هذا الجوّ المظلم ظهر أحد قادة الإسلام وزعمائه الأولين ألا وهو الإمام محمد بن عبد الوهاب (1703 –1791). أخذ هذا الإمام العظيم ينادي بالإصلاح الديني ويدعو الناس إلى التعاليم الإسلامية الصحيحة والعودة إلى المنبع الأصيل وهو القرآن الكريم والسنة النبوية والاقتداء بالعهد الإسلامي الأول، عهد الخلفاء الراشدين، فانتشرت دعوته وأخذت تسري كالنور تبدّد الظلام وتنير الطريق أمام المسلمين نحو الطريق الصحيح"[30] لقد وصلت هذه الدعوة إلى زنجبار، واليمن، والهند، ومصر. أما في الجزائر فلقد قام بالدعوة الوهابية ونشرها الإمام السنوسي (1787–1859) فهو مثل الإمام محمد عبد الوهاب سافر إلى عديد من البلدان الإسلامية في المشرق والمغرب، وكان يؤسس في كل بلد يحلّ به زاوية حتى إن مجموع ما بناه من زوايا كان يفوق 300 زاوية (31) ولا يمكن أن نتجاهل الدور الذي قامت به جمعية العلماء في الجزائر فلقد كان عملها مزدوجا أي بناء المدارس لتلقين الجيل الجديد لغته العربية ومبادئ الدين الإسلامي وكل ما يتصل بهويته وأصالته، أما في المساء فلقد كانت تقوم بدروس الوعظ والإرشاد للكبار تنظف عقولهم وتزيل ما علق بها من خرافات وضلالات ما أنزل الله بها من سلطان، والملاحظ هنا أن الدعوة الإسلامية كانت مقرونة بنشر اللغة العربية. يقول المرحوم عبد المجيد مزيان: "وإذا كنا نقول بتعبيرنا المعاصر بأن عالمية اللغة العربية هي عالمية الإسلام فإن الحركة الإصلاحية في جميع مراحلها كانت متحمّسة إلى

نشر اللغة العربية والدفاع عنها بصفتها لغة القرآن التي تطمح إلى معرفتها كل الطبقات الشعبية في العالم الإسلامي"[32].

إنني في ختام هذه الكلمة أود أن أقدم اقتراحين متواضعين:

الأول: يتمثل في تعديل مصطلح "عهد الانحطاط" بمصطلح آخر هو: "عهد الركود الحضاري" أو "الشيخوخة الحضارية" لأن عهدا ينجب أمثال ابن خلدون وابن تيمية وغيرهما كثير لا يمكن أن نصفه بهذا الوصف البذيء الذي يتنافى مع الأخلاق الحميدة والحقائق التاريخية الصحيحة.

الثاني: تكاد المصادر التاريخية وخاصة، الكتب التعليمية، تجمع على أن المسلمين دخلوا عالم الركود ابتداء من سنة 1258م، وأن القرن 16 وبالتحديد سنة 1572م قد بدأ فيه احتكاك الشرق بالغرب على إثر هجرة بعض اللبنانيين المسيحيين إلى أوروبا واهتمام أوروبا باللبنانيين. إن هذا الاحتكاك كان بمثابة مقدمة للنهضة العربية أما النهضة الحقيقية فكانت بدايتها سنة 1789 على إثر حملة نابليون على مصر؛ إن من يتأمل هذه التواريخ يدرك مباشرة أنها ذات صبغة سياسية، فالنهضة حسب هذه التواريخ لم تنبعث من الداخل وإنما كانت تحت تأثير من الخارج والحقيقة التاريخية الموضوعية بعيدة كل البعد عن هذا الزعم، لذلك رأيت تعديل التواريخ على هذا النحو: إن العالم الإسلامي توقف نبضه الحضاري سنة 1198م، وليس 1258م، على إثر وفاة رائد العقلانية ابن رشد. أما مقدمة النهضة فترجع إلى القرن 14 وليس القرن 16 لأن هذا العهد كان زاخرا بالمؤلفات في شتى العلوم والمعارف، إنه عصر ابن خلدون، وابن تيمية وإنه لمن المعروف جدا أن الإمام "محمد عبد الوهاب" تأثر بمؤلفات ابن تيمية وآرائه الإصلاحية الجريئة، أما بداية النهضة الحقيقية فلقد بزغ فجرها سنة 1744م على يد الإمام محمد عبد الوهاب، صحيح أن حملة نابليون أثرت في مسيرتنا التاريخية لكن هذا التأثير كان له جانب إيجابي، وجانب سلبي، فالجانب الإيجابي، مكننا من إدراك مدى تخلفنا الحضاري بالقياس إلى تقدم الغرب، أما الجانب السلبي، فالنهضة الأوروبية عطلت مسيرتنا التاريخية، فمعظم الأوطان العربية وقعت في قبضة الاستعمار بالإضافة إلى بروز النزاعات اللائكية، والإلحادية، ودعاة "اللهجات المحلية".

إن فلسفة النهضة الإسلامية اعتبرت الدين الإسلامي عمادها وركنها واللغة العربية لسانها وستبقى كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

المصادر

1. تاريخ العلم، سارتون جورج، نشر مؤسسة فراكلين للطباعة والنشر، القاهرة–نيويورك، ط2، ترجمة: عدة أساتذة، ج3. 4. 5. 6.
2. موجز تاريخ العلم، ويلز جورج، ترجمة: عبد العزيز توفي، أحمد مأمون، نشر مكتبة النهضة المصرية.
3. تاريخ التمدن الإسلامي، جورجي زيدان ، ج3، دار الهلال، 1958.
4. تاريخ الفلسفة اليونانية، يوسف كرم، طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1966.
5. سهام نحو المدرسة الأساسية، أحمد بناسي، منشورات التبيين، الجاحظية، ط1، 2000.
6. في اللغة والأدب وعلاقتهما بالقومية، ساطع الحصري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1966.
7. تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط، يوسف كرم، دار المعارف، القاهرة، ط3.
8. محاضرات، منشورات المجلس الإسلامي الأعلى، الموسم الثقافي، 1998–1999.

9. محاضرات، منشورات المجلس الإسلامي الأعلى، الموسم الثقافي، 1999–2000.

10. تاريخ الأدب العربي، حنا الفاخوري، بيروت، لبنان، ط6.

11. زعماء الإصلاح في العصر الحديث. أحمد أمين موفم للنشر، الجزائر، 1990.

12. تأملات في النهضة الإسلامية، أحمد بناسي، منشورات التبيين، الجاحظية، 1999.

13. نوابغ الفكر الغربي، أفلاطون، أحمد فؤاد الأهواني، دار المعارف، مصر، 1965.

الهوامش

1. سارتون، تاريخ العلم، ج3، ص173.
2. ج. ويلز، موجز تاريخ العالم، ص100.
3. سارتون، تاريخ العلم، ج6، ص303.
4. سارتون، تاريخ العلم، ج2، ص65.
5. المصدر نفسه، ص65.
6. المصدر نفسه، ص85.
7. فؤاد الأهواني، نوابغ الفكر الغربي"أفلاطون"، ص23.
8. سارتون، تاريخ العلم، ج3، ص165.
9. المصدر نفسه، ج3، ص150.
10. سارتون، تاريخ العلم، ج4، ص80.
11. سارتون، تاريخ العلم، ج6، ص140.
12. جورجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، ج3، ص146.
13. ج. ويلز، تاريخ العالم، ص151.
14. المصدر نفسه، ص152.
15. يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، ص242.
16. ج. ويلز، تاريخ العالم، ص 161.
17. سارتون، تاريخ العلم، ج6، 141.
18. سارتون ، تاريخ العلم، ج6، 137.
19. أحمد بناسي، سهام نحو المدرسة الأساسية، ص24.
20. سارتون، تاريخ العلم، ج6، ص141.
21. ساطع الحصري، في اللغة العربية وعلاقتهما بالقومية، ص44.

22. العربي ولد خليفة، محاضرات، منشورات المجلس الإسلامي الأعلى، الموسم الثقافي 2000/99، ص138.

23. يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط، ص13.

24. أحمد بناسي، سهام نحو المدرسة الأساسية، ص25.

25. المصدر نفسه، ص25.

26. سارتون، تاريخ العلم، 56، ص25.

27. سارتون، تاريخ العلم، ج6، ص35.

28. يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط، ص27.

29. سورة الحجر، الآية 9.

30. أحمد بناسي، تأملات في النهضة الإسلامية، ص16.

31. محمد الصالح رمضان، جريدة الشعب، بتاريخ 23 أفريل 1989.

32. عبد المجيد مزيان، محاضرات، منشورات المجلس الإسلامي الأعلى، الموسم الثقافي 2000/98، ص21.